جامعة الأزهر

حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

مجلة علمية محكمة

العدد الثامن عشر
(الجزء الأول)
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فيسرنى ويسعدنى أن أقدم للسادة القراء والباحثين العدد الثامن عشر من حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، يحمل بين طياته طائفة من البحوث العلمية والأدبية المحكمة، قام بتأليفها صفوة من السادة أعضاء هيئة التدريس فى الكلية رغبة منهم فى نشر العلم والمعرفة.

والله الكريم أسأل أن يوفقنا جميعاً لخدمة العلم والدين، وأن يرزقنا الصدق فى القول والإخلاص فى العمل إنه سميع مجيب.

الأستاذ الدكتور/ محمود السيد شيخون
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة
ورئيس التحرير

أبحاث
اللغة العربية وآدابها

١- دور المتكلم فى بناء الجملة
أ. د/عبد الحليم محمد عبد الحليم

٢- الأحرف والقراءات القرآنية
فى ضوء الدرس اللغوى
أ. د/ محمد مختار محمد المهدى

٣- أبو فراس الحمدانى وفلسفة
فخره من شعره
أ.د .م/ محمد حسن عبد اللطيف

٤- أى واستعمالاتها
د/ محمد أحمد حسن إمام

دور المتكلم في بناء الجملة

سيظل بناء الجملة العربية مفتقراً إلى من ينظر إليه، فقد بدأ هذا البحث الشاق عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز عندما ابتكر نظرية «التعليق»، فالمتكلم يقوم أولاً بتعليق دلالات الألفاظ في عقله، وذلك بضم بعضها إلى بعض، وترتيبها بحسب معاني النحو، ووفقًا لمقدرة المتكلم اللغوية، فتكون النتيجة نظمها وترتيبها في النطق أي التلفظ بالجملة.

فالتعليق: تفاعل يتم في العقل بين دلالات الألفاظ ومعاني النحو، تنشأ من خلال علاقات الارتباط والربط بين تلك الدلالات، وذلك من خلال اختيار المتكلم بين ممكنات متعددة تتيحها اللغة من حيث دلالات الألفاظ ومعاني النحو، وتتفاوت المقدرة اللغوية بين الأفراد في هذا. أما النظم فهو نتاج لعملية (التعليق). ويفهم من هذا أن التعليق ترتيب لدلالات الألفاظ في العقل، والنظم ترتيب للألفاظ ذاتها في الجملة الملفوظة، يقول عبد القاهر: (لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك)[1] ويفسر التعليق بما معناه أنه مقدرة المتكلم على معرفة معاني النحو فيقول: (واعلم أني لست أقول: إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلمة المفردة أصلاً. ولكني أقول إنه لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو)[2] فالتمييز بين

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

هاتين العـمليتين أمـر في غاية الصـعوبة، لأن المتكلم يؤديـهما علـى حال تكاد تجعـلهما عـملية واحـدة: يقول عـبد القاهر: (إذا فـرغت من ترتيب المعاني في نفـسك، لم تحتج إلى أن تستـأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها)[1].

وليس الدافع للناس عـلى الكلام هو استـعـمال أوتارهـم الصوتيـة فقط، وإنما الداعي عـادة هو إبلاغ شيء للمخاطبين، أي قـول شيء معين يكون للفـرد منه غـرض مـعين، ولا ينجح حـدث الاتصـال إلا إذا أدرك السـامع ذلك الغـرض. وينظر علم اللـغة الحـديث إلى عـمليـة الاتصـال اللغوي على أنهـا الوظيفة الأساسيـة الكبرى للغات البـشر، وقد لاحظوا أنها تتمـثل في نقل رسالة Massage من مـرسل هو المتكلم Speaker or First Person يرسلها إلى آخـر مستـقبل لها وهـو المتلقي أو المخاطب أو السامع Hearer, or Receiver or Record Person.

فجـملة الأمر كما يرى عـبد القاهر أن (الخـبر وجميع الكلام مـعان ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه ويراجع فيها عقله وتوصف بأنها مقاصد وأغراض)[2].

(فـالدلالة على الشيء هي لا مـحـالة إعـلامك السـامع إياه، وليس بدليل مـا أنت لا تعلم به مدلـولاً عليه، وإذا كـان كذلك، وكـان مما يعلم ببدائه العـقول أن الناس إنما يكلم بعـضهم بعضًـا ليعرف السـامع غرض

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٥.

المتكلم ومقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره وما هو)[1] فدور المتلقي يتم في الاتجاه العكسي لما يتم به عند المتكلم، فالمتكلم يحول المعنى إلى مبني، والمتلقي يحول المبني إلى معنى، أي أن الغاية من عملية الاتصال اللغوي هي نقل المعنى من الجهاز العصبي المركزي لدى المتكلم إلى نظيره لدى المتلقي، فالمعنى هو المهم وهو الغاية من عملية الاتصال وهو ما يعض عليه المتكلم والمتلقي بالنواجذ. وهذا لا يعني تصور انفصام بين المبني والمعنى، فالجملة الملفوظة أو المكتوبة إنما هِي في الحقيقة (معنى كامن في وعاء من المبنى) وهو استنتاج من تشبيه عبد القاهر للألفاظ بأنها أوعية للمعاني[2] وهذا التصور من عبد القاهر أدق من تصور بعض الباحثين الغربيين للجملة بأنها: «مثل العملة المعدنية، تتألف من الازدواج بين وجهين، فهي تتضمن تلفظًا Pronunciation من ناحية ومعنى Meaning من ناحية أخرى».

وإذا تتبعنا نظرية التعليق عن عبد القاهر نرى أنه كان حريصًا على دراسة دور المتكلم في بناء الجملة، لا دور المتلقي في فهمها، فهو يتناول النظم من حيث هو صادر عن المتكلم وهذا هو ما جعله ينطلق في دراسته لبناء الجملة من المعنى لا المبني، وقد نص على ذلك صراحة حين قال: «وشبيه بهذا التوهم منهم أنك قد ترى أحدهم يعتبر حال السامع، فإذا رأى المعاني لا تترتب في نفسه إلا بترتب الألفاظ في سمعه، ظن عند ذلك أن المعاني تبع للألفاظ، وأن الترتب فيها مكتسب من الألفاظ ومن

(١) دلائل الإعجاز، ص ٣٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧.

ترتبها في نطق المتكلم، وهذا ظن فاسد ممن يظنه، فإن الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه، لا مع السامع»[1]. فالمتكلم شغل عبد القاهر الشاغل ، وكل عنايته الفائقه، ولهذا يعرض أسس نظريته من خلال توجيه الحديث إليه فتراه يقول: «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله»[2]. ويشبه المتكلم بصاحب الحرفة أو الصناعة فيقول: «واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعًا من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض، حتى تصير قطعة واحدة»[3]، ويقول مخاطبا المتكلم: «وتكون معرفتك معرفة الصانع الحاذق الذي يعلم كل خيط من الإبر يسم الذي في الديباج. وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع»[4]. هذه أمثلة من عبارات كثيرة أوردها في كتابه لبناء دور المتكلم لا المتلقي في بناء الجملة، وكتابه دلائل الإعجاز إنما ألفه مدفوعًا بالبنية الفكرية في عصره فقد دفعته هذه البنية إلى التفكير في قضية اشتد فيها الجدل حول القرآن الكريم: أمخلوق هو أو قديم؟ واتصلت بهذه القضية قضايا أخرى حول اللفظ والمعنى أو بتعبير آخر: حول الكلام المنطوق والكلام النفسي، فتناول عبد القاهر - وهو الأشعري المذهب - قضية

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧١.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٥٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٧.

الإعـجاز القـرآني من خلال فكرة الـكلام النفسي، وقـاده هذا بدوره إلى فكرة نظم المعـاني في الـنفس، وهي التي تعـد من أحـدث القـضـايا التي تشغل علم اللغة الحديث وأهمـها، وهذا هو الذي جعله ينطلق من المعنى للوصول إلى المبنى، وقد سـار بذلك حسب المنهاج الصحـيح الذي تسير فـيه عـمليـة الاتصـال اللغوي، وأتـاح له هذا المنهـاج الذي ينظر إلى بناء الجملة أو التباسه، وبقدر ما يوفق المتكلم في اختيار المعاني المناسبة للسياق ولغرضه من الكلام ، وبقدر ما يوفق في الـتعليق بين تلك المعاني وصحة الائتلاف والاتحاد بينهـا، وبقدر ما يلتزم المقصود واسـتنتاج غرض المتكلم دون لبس يكـون تحقق المـعنى. والجملة معنى كـامن في وعاء من المبنى، وما المبني إلا الـوسيلة التي اتفقت علـيها الجـماعة اللغـوية لتحـقيق تلك الغاية.

ولعل أهم عقـبة لغوية تصـادف المتكلم أيًا كانت لغـته أن نظام بناء اللغة يعـجز أحيانًا عن التـعبير عـما في قرارة النفس من معـان. إذ ليست اللغـة الأداة المثالية للـتعبـير عن الفكر، ومن هـنا نشأ الصراع الـقديم بين حرية المعاني وقـيود المباني، أو بين الأداء والكفاءة، فالمـتكلم ينشد ممارسة حريـة التعـبيـر عن فكره، وقوانين اللغـة وأبنيتـها تشـده إلى إسارهـا فلا يستطيع منهـا فكاكًا. وربما كان هذا هو المنطلـق الأساسي لتفسـير ظاهرة التطور اللغـوي في أية لغـة إنسـانيـة، فاللـغة تنمـو وتتطور كلـما وجـد الناطقون بها أنفسهم مضطرين إلى تبديل قوانينها وأبنيتها لتواكب المعاني الجديدة التي تتطور وترتقي بارتقاء الفكر للجنس البـشري. ولهذا وجدنا

المصريين وقد رأوا كثيراً من أفعال اللغة تعجز عن تجسيد الحركة داخل هذه الأفعال، رأيناهم يسارعون إلى تبديل مواقع أصوات بعض الأفعال لتوائم الحركة التي تعبر عنها هذه الأفعال. فتحول كثير من الأفعال عن وزنه الأصلي إلى وزن آخر معبر بذاته، فالفعل المبني للمجهول في نحو ضُرب وكُسر تحول إلى انضرب وانكسر، والفعل يحترق مثلاً تحول إلى اتحرق أو انحرق. وهكذا ...

وقد عرفت الفصحى ترتيبًا خاصًا للجملة، فبدأت بالفعل ثم نسبت إليه الفاعل فقالوا: أنبت الربيع البقل. كانوا يبدأون بالفعل قبل معرفة الفاعل يقولون: تعالت سحب الدخان، فغلبت الجمل الفعلية في تعبيراتهم، أما الواقع المصري فقد أحال الجمل في مجموعها إلى جمل اسمية ولهذا رأيناهم يقولون: محمد ضرب علي إذا أرادوا إسناد الضرب إلى محمد ويقولون: علي ضرب محمد إذا أرادوا إسناد الضرب إلى علي وذلك كله بدلاً من التعبير القديم: ضرب محمد عليًا. فالفاعل معروف في الواقع المصري وينسب إليه فعله بعد تقديمه في الجملة، ولهذا سادت الجمل الاسمية في اللهجة القاهرية فسمعناهم يقولون: الحرب قامت والقوالب نامت والانصاف قامت والعصافير هاجرت. وحين يوصف عصر من العصور بأنه عصر ارتقاء أو عصر انحطاط للغة، فذلك دليل على ارتقاء المعاني أو انحطاطها في ذلك العصر.

وإذا كانت الجماعة اللغوية العربية قديمًا قد اتخذت من العلامة الإعرابية وسيلة. ضمن وسائل متعددة للتعبير عن المعاني النحوية

كالفاعلية والمفعولية والإضافة. في حين لا تلجأ جماعات أخرى إلى هذه الوسيلة - كما حدث في اللهجة القاهرية مثلاً - ومن هنا يستطيع المتكلم في كل جماعة لغوية أن يولّد عدداً لا نهاية له من الجمل التي لم يتنجها ولم يتلقها من قبل باستعمال عدد محدود من المباني. ولذلك تكاد تكون كل جملة في أي نص مدون مختلفة عن الأخرى في معناها، حتى ليمكن القول إن كل جملة ترد في النص مرة واحدة فقط. ونظام البنية الخاص بالجماعة اللغوية هو نفس نظامها اللغوي الذي يحكم لغتها ويميزها من غيرها، وقد اتضح هذا النظام اللغوي حتى في أكثر اللغات بدائية، وفي البيئات التي لم يتح لها أي نصيب من الحضارة[1].

واللغة بوصفها نظامًا رمزيًا لا تمد الفرد بالمعاني وإنما تمده بالمباني التي تعد الوسيلة المعينة على التعبير عن المعاني وفهمها، وتشتمل المباني على طائفة من القوانين تنطلق جميعًا من فلسفة واحدة وهي أمن اللبس في فهم المعاني، لأن غاية اللغة الوضوح، ولا حيلة للمتكلم إزاء قوانين البنية، فهو مجبر على العمل بها، وإلا صار كلامه ملبسًا، والدليل على اختصاص المباني لا المعاني بأمن اللبس أن المتكلم حين ينطق بجملة فيها لبس، يكون ولا شك عالمًا بمعناها. إلا أنه يكون قد أخفق في العمل وفق قوانين أمن اللبس التي تحكم البنية. فالمتكلم يختار ما يشاء من المعاني التي لا نهاية لها ليعبر عنها في جمل لا نهاية لعددها أيضًا، فهو محدث المعاني ومنظمها، وهو بحسب دوافعه وأغراضه الاجتماعية وبحسب السياق

---

(١) د/ إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، ص ١١.

يختار المعنى الدلالي للجملة، ووفقًا لهذا المعنى يختار المعاني المفردة المتمثلة في الألفاظ ويؤلف بينها ويربط، ويوظف كل لفظة، فيختار ما يراه مناسبًا لها من المعاني النحوية الخاصة، كالفاعلية والمفعولية والإضافة، كما يختار ما يراه مناسبًا لصيغة الجملة بعامة من المعاني النحوية العامة كالإثبات والنفي والخبر والإنشاء والشرط والتأكيد، فالمتكلم هو العامل المؤثر في كل هذا، وفي هذا يتفاضل المتكلمون، وتختلف أساليب الأداء فيما بينهم.

المصادر والمراجع

١- د/ إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠م.

٢- أولمان، ستيفني S.Ullmann، دور الكلمة في اللغة، ترجمة د/ كمال محمد بشر، القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٧٥م.

٣- د/ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط٢، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.

٤- د/ تمام حسان، الأصول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.

٥- الجرجاني (عبد القاهر) أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ت ٤٧١هـ: دلائل الإعجاز، تحقيق الشيخ محمد عبده والشيخ محمد الشنقيطي ومحمد رشيد رضا، القاهرة، مكتبة القاهرة، ١٩٦١م.

٦- ماريو باي Mario A. Pei لغات البشر، أصولها وطبيعتها وتطورها، ترجمة صلاح العربي، القاهرة، قسم النشر بالجامعة الأمريكية ١٩٧٠م.